الفينيقيون

(تابع لما في الجزء السابق)

وكان لهم في الصناعة اليد الطولى ولا سيما في صنع المعادن والمنسوجات وضروب الوشي والزخرفة والتماثيل المعدنية والحجرية . وقد جآء في التوراة في وصف حيرام الصوري انهُ كان خبيراً بعمل الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجر والخشب والارجوان والسَمَنْجوني والبَزّ والقرمز وصناعة كل نقش واختراع كل شيءٍ يُلقَى اليهِ . ومن بدائع مصنوعاتهِ في هيكل سليمان العمودان الهائلان اللذان نصبهما في رواق الهيكل وهما المسميان بياكين و بُوعَز سبكهما من نحاس وكان طول الواحد منهما ثماني عشرة ذراعاً ومحيطهُ اثنتي عشرة وسبك لكلٍّ منهما تاجاً على شكل زهرة سوسن ارتفاعهُ خمس اذرع تحيط باصلهِ مئتا رمّانةٍ قد نُظمت صفَّين . ثم الحوض المسمى بالبحر سبكهُ مستديراً على شكل سوسنة وجعل قطرهُ عشر اذرع في مثل نصفها ارتفاعاً واقامهُ على اثني عشر ثوراً كل ثلاثة تنظر الى جهة من الجهات الاربع . وسبك معهُ عشرة اوازن للاغتسال ركَّبها على قواعد تجري على بكر من نحاس ونقش عليها اسوداً وثيراناً وكَرُوبين وجعل فوق هذه وتحتها قلائد زهور متدلية الى آخر ما ذُكر من الوصف هناك

ثم ان الفينيقيين هم اول من زاول صنع الزجاج واول من اتخذ منهُ المرآئي وكانت قبل ذلك تتخذ من صفائح المعدن . وكانوا ولا ريب قد اهتدوا الى معالجة الزجاج باضافة المنغنيز الى الرمل والصودا للزيادة في شفوفهِ وصفآء

مآئهِ ويقال انهم كانوا يقلّدون بهِ الحجارة الكريمة ويلوّنونهُ بالاكاسيد المعدنية . وهم اول من استعمل في الصناعة البوري والمخرطة والازميل ونُقل عن سنكُنيات المقدم ذكرهُ ان الصيدونيين هم الذين وضعوا فن الموسيقى واليهم ينتهي اختراع اكثر الآلات القديمة وفي رأي بعضهم ان هذا الفن لم يبلغ ما بلغهُ من الاتقان عند الاسرائيليين لعهد داود الاّ لما كان من استحكام الصلات بين بلاط اورشليم وبلاط صور

الا ان اعظم اختراعٍ يُنسَب الى الفينيقيين هو استنباطهم لصناعة الكتابة والمراد بها الكتابة بحدّها المعروف اليوم اي المؤلفة من حروفٍ ذات مقاطع فان الكتابة التي كانت متعارَفةً قبل ذلك من مثل الرسوم الصينية والهيرغليفية انما كانت رموزاً يُدَلّ بها على الكلمات دون الحروف وبعبارةٍ اخرى كانت صوراً للمعاني دون الالفاظ فكان تعلُّمها يقتضي درساً طويلاً لكثرة اشكالها واختلاف مدلولاتها فضلاً عما يقع فيها احياناً من الالتباس ولذلك لم تكن جديرةً بان يعمّ استعمالها جميع طبقات المجتمع . وبخلافها الحرف الفينيقي لرجوعهِ الى تركيب الصور اللفظية وانحصارهِ في عدد معلوم من الاشكال هو عدد المقاطع التي تتركب منها تلك الصور ولذلك لم يكد يشتهر هذا الاختراع حتى تناولتهُ الامم المجاورة ثم لم يلبث ان شاع في جميع اطراف آسيا وسواحل افريقيا وجاز البحر الفاصل بين آسيا واوربا فدخل كريت وبلاد اليونان وصقلّية وايطاليا واسپانيا وانتشر من هناك الى شمالي اوربا وكان سبباً في تمدن اكثر امم الارض

واما لغة الفينيقيين فمع انتشارها في كل موضعٍ وصلت اليهِ طوارئهم

ومع كثرة ما وُجد لهم من الآثار والدفائن لم يعثر الباحثون منها على القدر الكافي للكشف عن حقيقتها غير انها بلا ريب كانت من الفروع الساميّة كما يُستدَلّ عليهِ من الكتابات القليلة التي وُجدت في بعض دفائن قبرس ومرسيليا وغيرهما . وفي كلام اشعيآء ما يؤخذ منهُ انها هي العبرانية بعينها لانهُ يسمي هذه اللغة بلغة كنعان وهو ما تؤيدهُ الادلة التاريخية والشواهد اللفظية كما اثبتناهُ في الكلام على اصل اللغات الساميّة[1] مما لا نكررهُ في هذا الموضع طلباً للاختصار . على انهُ قد تبين من بعض ما في الكتابات المذكورة ان هذه اللغة تختلف بعض الشيء عن اللغة المدوّنة في التوراة وقد وُجد فيها كلمات عربية وحميرية وحبشية لا وجود لها في العبرانية او توجد فيها ولكن بغير مدلولها الفينيقي . والاظهر ان هذا الاختلاف نشأ بسبب مهاجرة بني اسرائيل ذلك الزمن الطويل واختلاطهم بالمصريين وما عرض لهم من تبدُّل العادات والشؤون مما لا بدّ ان يكون قد حدث شيءٌ من مثلهِ عند الكنعانيين ايضاً فنشأ بين الفريقين من تباين اللهجة ما ينشأ عادةً بين اصحاب اللغة الواحدة اذا اتفق لهم مثل ذلك . وقد وقع مثل هذا الاختلاف بين لغة فينيقية ولغة قرطاجة مع تحقق وحدة الاصل فيهما وهو ولا ريب مسبَّبٌ عن مثل ما ذُكر

وقد انقرضت اللغة الفينيقية منذ ازمانٍ بعيدة لما توالى على اهلها من الجوائح وما تبدل على ارضهم من الدول ولا سيما بعد وقوعهم في قبضة الرومان وكان آخر ما عُهد منها في قرطاجة ونواحيها من بلاد افريقيا وذكر القديس

(١) انظر مجلد السنة الرابعة ص ٤٨٨ و ٤٨٩

ايرونيموس في القرن الرابع بعد الميلاد انها كانت باقية الى ايامهِ وذلك بعد خراب قرطاجة على يد الرومان بما يزيد على ٥٠٠ سنة

اما دين الفينيقيين فهو كسائر شؤونهم لم يبقَ ما يُعرَف منهُ الا الشيء القليل وقد كتب عنهُ جماعةٌ منهم ثيُودُوطس وهِبْسِكرات وهيّيرُونيمس المصري وغيرهم ولعلّ اصحّ ما ورد فيهِ ما نُقل عن سَنكُنْيات المقدَّم ذكرهُ. ومحصَّل ما جآء في تلك المنقولات ان الفينيقيين كانوا يرجعون في عقائدهم الى كتبٍ مُنزَلة على حدّ سائر امثالهم من الامم الكبرى لذلك العهد كالبابليين والمصريين وغيرهم وقد أُنزلت تلك الكتب اليهم على يد تآؤُوت اله الحكمة عندهم وهو فيما يرى بعضهم نفس توث اله المصريين المعروف عند اليونان بهرمس وقد اوحى اليهِ بها بعل الاله الاعظم وكان هذا الاله الحكيم ينزل حكمتهُ على عَمَد الهيا كل او يودعها الواح الكتب المقدسة

على ان ما نُقل عن سنكنيات لم يخلُ من مخالطة اشيآء من فلسفة اليهود واليونان والمصريين كما يتبين ذلك مما روى عنهُ اوسابيوس القيصري وهو في الغالب مقصورٌ على البحث في كيفية الخلق وكلهُ مورَّى تحت الرموز والاسرار. وخلاصة ما ذُكر فيهِ انهُ في البدء كان يملأ الفضآء هوآءٌ مظلم وقد انتشرت في ذلك الهوآء نسمة الروح وكلاهما لا يحيط بهِ حيّز ولا يحدُّهُ زمن. ثم ان عناصر الهوآء عشق بعضها بعضاً فاتحدت وتولد عن هذا الاتحاد الطين او الحمأ وكان هو جرثومة الخلق باسرهِ. ولما خُلقت الكائنات الحية كانت فاقدة الحسّ ثم تولد عنها كائناتٌ اخرى حية عاقلة كانت على شكل بيضة وسميت زُوفَاسَمين (وبالعبرانية صُوفَاشَمايِم) اي

حارس السماوات . وبعد ذلك ظهرت من جوف ذلك الحمأ الشمس والقمر والنجوم والكواكب الكبرى اي صُوَر النجوم. ولما التهب الهوآء بحرارة الارض والبحر نشأت الريح والسحاب وعقب ذلك انهمار مياهٍ كثيرة من السمآء انصبّت بغزارة عظيمة ثم تبددت بحرارة الشمس فعادت الى الجوّ وعند التقآئها اصطدمت بعنفٍ فحدث الرعد والبرق وعند قصيف الرعد استيقظت الحيوانات العاقلة وارتعشت بذلك الصوت فشرعت تتحرك في البرّ والبحر وكان منها ذكورٌ واناث

وهناك تفاصيل طويلة في اشتقاق بعض الآلهة من بعض وتسلسل الخلائق من العناصر اكثرها مُبهَمٌ لاستتارهِ ورآء الرموز فاضربنا عن استيفآئها . ومن تقاليدهم التي رواها فيلون في حديث الخلق ان الاله الخالق واسمهُ عندهم ايل لما نوى ان يخلق الكائنات وأد أخاهُ اطلس اي دفنهُ حيًّا برأي تآؤُوت وهو هرمس وذبح ابنهُ ساديد بيدهِ وقطع أروُس بناتهِ وتزوج جميع بنات ابيهِ وفيهنَّ عشتاروت والمراد بها هنا القمر وهي من اعظم آلهة الفينيقيين . فولدلهُ منها سبع بنات هنَّ الكواكب السبعة السيّارة وولد لهُ ايضاً ثلاثة بنين يسميهم اليونان كرُونُوس وزيُوس وأَبُولُون وهم ثلاثة اقانيم لاله واحد يراد بهم ثلاث صفاتٍ هي التي لم تبرح منذ تجسد اللاهوت في العالم تحييهِ وتحرسهُ وتجدد ما اندرس منهُ على الدوام

ثم ان كرونوس وهو احد الاقانيم الثلاثة المذكورة ذبح لابيهِ اورانس (اي السمآء) ابنهُ الوحيد وقرَّبهُ محرقةً لهُ فكان من ثمَّ رسم الضحايا البشرية التي طالما جرى عليها الفينيقيون ولا سيما في عبادة بعل مُولك وهو

الذي يسميهِ فيلون كرونوس قيل والمراد بهِ زُحَل وهو اعظم آلهتهم. وكانوا يعبدونهُ باعتبار كل صفةٍ من صفاتهِ او فعلٍ من افعالهِ فكان يمثَّل على عدة اشكال كلٌّ منها كان الهاً بنفسهِ . فمن الآلهة التي تمثلهُ بعل أَيتان اي الاله القدير و بعل شامان او هامون قيل ومعناهُ الاله المُحرِق او اله النار وكان يُعبَد في قرطاجة . و بعل جاد أي اله السعادة قيل والمراد بهِ المشتري وكانوا يطلقون عليهِ كوكب بعل. و بعل صَفُون أي اله الظلمات او اله الجحيم و بعل بَريت أي اله العهد و بعل فَغُور وكان اله الفجور وفغور اسم جبل بارض موآب كان موضع عبادتهِ . و بعل حَرْمون وهو الجبل المشهور المعروف اليوم بجبل الشيخ وكان معدوداً من الجبال المقدسة وفيهِ عدة هياكل لهذا الاله

وكان لهم آلهةٌ من البشر او غيرهم من المخلوقات هم الذين كانت تتجسد فيهم تلك الآلهـة فمنهم مَلكَرْت حارس مدينة صور ويقابلهُ هرقول عند اليونان وهو بمنزلة اقنوم من اقانيم بعل أَيتان المقدم ذكرهُ وهو اله الغنى والصناعة والملاحة وكانوا حيثما اقاموا يبنون لهُ هيكلاً . ويليهِ عدةٌ كثيرة من الآلهة منهم تآؤُوت المذكور قبلاً وهو مخترع الكتابة والعلوم والفنون كهرمس عند اليونان . ومنهم دائجُون وكانوا يمثلونهُ بشكل حيوان نصفهُ انسان ونصفهُ سمكة وهو من آلهة البحار. ومنهم تيفُون وهو على شكل ثعبان قيل وهو من آلهة البحار ايضاً وغير ذلك مما لا نطيل باستقرآئهِ

وكان في صور عدة معابد لملكَرْت ومثلها في صيدا لعشتاروت وفي هايُوپُوليس (بعلبك) و بيبلوس (جبَيل) وأَفقا لعشتاروت وأَدُونيس او بعل أَدُوني وكذلك في هيَيراپوليس على ان بعضاً من تلك المعابد لم يكن

فيها اصنام ولكن كانوا يكتفون فيها بايقاد النار والبخور . وذكر لوسيان في الكلام على هيكل هيّيراپوليس انهُ رأى فيهِ تماثيل ضخيمة يُتوهم انها آلهةٌ احيآء فانها تعرق وتتحرك وتجيب بنفسها على ما تُسأل عنهُ واذا أُغلق الهيكل ارتفعت من داخلهِ اصواتٌ تُسمَع من الخارج . قال اما غنى ذلك الهيكل فحدّث عنهُ ولا حرج فانهُ ترسل اليهِ من بلاد العرب وفينيقية وارض بابل وكبدوكية وقيليقية و بلاد أشّور هدايا لا تحصى من ذهب وفضة ومنسوجات فاخرة وغيرها وقد رأيت كل ذلك بنفسي في مكانٍ محجوب ويقام هنالك من الاحتفالات في الاعياد ما لا يقام نظيرهُ في العالم باسرهِ

وكان الفينيقيون يكثرون من الكهنة حتى كان عند ايزابَل بنت أَتبعل الصوري اربع مئة وخمسون كاهناً من كهنة البعل واربع مئة من كهنة عشتاروت وكان الكهنة يحلقون شعر رؤوسهم ويلبسون السواد ولم يكن الكهنوت مباحاً للنسآء . وكانوا يقيمون احتفالاتهم الدينية على مشارف من الارض يبنون عليها الهياكل ويغرسون حولها الاشجار العظيمة ويأتيها المحتفلون في الاعياد من كل أوب فيرفعون اليها هداياهم ومحرقاتهم ويُجري الكهنة سنن عباداتهم فيتهللون باعلى اصواتهم وربما هشّموا اجسادهم بالسيوف والحراب وهي عادةٌ لهم في اوقات الحزن والتفجع . وكانت لهم مواعيد يقرّبون فيها الى بعض آلهتهم الضحايا البشرية واخصّ تلك الآلهة بذلك مُولَك في فينيقية وكرونوس في قرطاجة وقد تقدم ان كليهما واحد وكانت تقرَّب اليهما الضحايا من الاطفال . وكانوا يمثلون كلاًّ منهما بهيئة رجلٍ من نحاس قد بسط يديهِ كانهُ يتلقى بهما الضحية المرفوعة اليهِ وعند ارادة التقريب يوقدون تحتهُ ناراً

حتى يحمى ثم يضعون الطفل على يديهِ فيحترق وفي اثنآء ذلك يقرع الكهنة الطبول ويرفع الشعب اصواتهم بالهتاف حتى لا يُسمع صراخ الطفل . وذكر ديودورس الصقلّي في وصف صنم قرطاجة ان يديهِ كانتا مبسوطتين مع تصويبهما الى جهة الارض وكانوا يجعلون امامهُ حفرةَ يملأونها ناراً فاذا وضعوا الطفل على يديهِ تدحرج فسقط في الحفرة . وقال غيرهُ بل كان الصنم مجوفاً والنار تحتهُ ويداهُ مصوَّبتان بحيث اذا وُضع الطفل عليهما انحدر الى جوفهِ فالتهمتهُ النار التي تحتهُ ولعل هذه الرواية اصح لما جآء في خرافات اليونان من ان زُحَل افترس ابنآءهُ عملاً بما اشترط عليهِ اخوهُ تيتان حين نزل لهُ عن الملك في خرافةٍ ليس هنا محل ذكرها . قال واكثر ما كانوا يفعلون ذلك عند ارادة التكفير عن ذنبٍ من ذنوب الامة اجتلاباً لرضى الآلهة وكان على الأمّ ان تشهد احراق طفلها من غيرها ان تجري دمعةً او تبدي أمارة حزن

هذا ما امكن استخلاصهُ من تأريخ هذه الامة الصغيرة التي طبّقت شهرتها آفاق المعمور وتخطى ذكرها اعناق العصور اخذناهُ عن عدة مؤلفات من اشهر ما كُتب في هذا المعنى وامثلهِ . وهناك رواياتٌ أُخر بعضها مشكوكٌ في صحتهِ وبعضها لا يخلو من مناقضةٍ لبعض ما تقدم فاضربنا عن ذكرها تفادياً من تشويش ذهن المطالع . على ان غالب ما في تاريخ هـذه الامة لا مستندَ لهُ الا نقل الرواة لذهاب كتبهم وندرة الآثار الباقية عنهم ومما لا يُنكَر ان الفينيقيين كما كانوا قادة الملاحة واساتذة الصناعة في تلك العصور فقد كانوا ائمة العلوم والفنون وملقّني العقائد الدينية والفلسفية

وعنهم اخذ اكثر الامم المعاصرة لهم ولا سيما اليونان لما كان بين الامتين من قرب الجوار وكثرة المخالطة . ولذلك فانك قلما تجد معبوداً للفينيقيين او اسطورة دينية او ذكر من اشتهر باختراعٍ او عملٍ عظيم الا تجد ما يقابلهُ في عقائد اليونان ومرويّاتهم مع تبديل صور الوقائع والاسمآء والخلط بين ما اصلهُ فينيقي وما اصلهُ يوناني . وهذا ولا جرم احد الاسباب التي ضاع بها كثيرٌ من حقائق تأريخ الفينيقيين واوقع فيهِ ماذُكر من التباين تارةً والتناقض اخرى . على أنّا اخذنا من كل ذلك بالاشبه والاقرب والله اعلم وهو سبحانهُ المتفرد بالبقآء لا اله الا هو ذو العزّة والجبروت

الدخان والبخار

كلاهما ما يتصاعد عن الاجسام بفعل الحرارة وهما كثيراً ما يتشابهان في رأي العين لكن الفرق بينهما ان البخار ارقّ قواماً واخلص مادّةً لانهُ لا يتألف الا من غازات صِرفة حالة كون الدخان لا بدّ ان يشتمل على اجزآءٍ سائلة او جامدة وبعبارةٍ اخرى هو بخارٌ غازيٌّ يخالطهُ موادّ غير غازيّة . وذلك ان الجسم عند احتراقهِ لا يستحيل برمتهِ الى رماد وعناصر غازيّة لان ما يتأكسد منهُ تخالطهُ ذرّات من الفحم والموادّ الدهنية واجزآءٌ اخرى من المادة المشتعلة مما لم ينحلّ بالاحتراق

ولما كان الدخان يشتمل على جانبٍ من هذه الاجزآء التي لم يتم احتراقها كان ولا جرم من الفضلات التي تذهب سُدًى وهي قد تكون مقداراً كبيراً من مادّة الوقود ولا يخلو فضلاً عن ذلك من اضرارٍ صحية ولا سيما